بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإنَّ من حكمة الله التامة أن أوجد على هذه البسيطة أعداءً لبني آدم من غيرجنسهم -وهم الشياطين- يسعون لإضلالهم، وتشكيكهم في عقائدهم، وذلك بالوسوسة لهم، وإلقاء الشُّبَه في قلوبهم.

ولَمَّا ثَقُل أمرها -أعني الوسوسة- على بعض الصحابة ﷺ بما قذف الشيطان في قلوبهم استعظموا ذلك، فكان ما معهم من الإيمان محركاً لهم على كراهيتها ودفعها، ومن ثَمَّ سؤال النبي ﷺ عنها.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ، فسألوه: إنَّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»[1].

فكان هذا الجواب النبوي مطمئناً لقلوب الصحابة ﷺ ورافعاً لِمَا أقلقهم، وشاهداً بالإيمان الخالص لهم، وحاصله: أن هذه الوساوس الرديئة التي تمرُّ بالقلب، وتخطُر عليه، فلا يعقد عليها بل يبغضها وينفر عنها، متجاوَز عن صاحبها، بل إنَّ هذا الاستعظام لها، وشدة الخوف من النطق بها -فضلاً عن اعتقادها- هو صريح الإيمان ودليل صحته.

(١) رواه مسلم (١٣٢).

● ويستفاد من الحديث المتقدِّم فوائد عدَّة:

١- شدة عداوة الشياطين لبني آدم، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

٢- التنبيه على ما ينبغي أن يكون عليه المفتي من إزالة قلق المستفتي وإفادته بالجواب المناسب لحاله.

٣- عون الله تعالى لعباده المؤمنين على دفع هذه الوساوس، وذلك بأن جعل في قلوبهم من الإيمان واليقين ما لا تثبت معه هذه الوساوس.

٤- أن هذا من أعظم النِّعَم التي تستلزم الشكر.

يقول الشوكاني رحمه الله: «فإذا لم يكن له سبيل على المؤمنين إلَّا بأن يوسوس لهم وسوسة لا وجود لشيء من معناها في الخارج، ولا تبرز في قول ولا فعل، فذلك من أعظم النِّعَم التي ينبغي شكر الله عليها»[2].

٥- ما ينبغي على المؤمن استعماله عند ورود الشبهات والوساوس من الرجوع إلى العلماء الذين يُبيِّنون هذه الأمور ويكشفونها.

ومن كمال نُصْح النبي ﷺ أن أرشد مَن وقع في هذا النوع من الوسوسة إلى أمور تضمحل معها تلك الشُّبَه الشيطانية، مَن استَعْمَلَها وعمل بها حفظ نفسه وصحَّ له قلبُه، وهي:

أ- الاستعاذة بالله تعالى.

ب- الانتهاء عمَّا وقع في النفس من الوساوس.

قال ﷺ: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: مَن خَلَق كذا؟

(٢) رفع البأس للشوكاني (ص:٤٣).

مَن خَلَق كذا؟ حتى يقول: مَن خَلَق ربَّك؟ فإذا بَلَغَه فليَسْتعِذْ بالله ولينْتَهِ»[3].

ج- قول: «آمنت بالله».

قال ﷺ: «لا يزال الناسُ يتساءلون حتى يُقال: هذا خَلَق اللهُ الخَلْق، فمَن خَلَق اللهَ؟ فمَن وجد من ذلك شيئاً فليَقُل: آمنتُ بالله»[4].

د- قول: «قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد».

هـ- التفل عن الجهة اليسرى ثلاثاً، ويقرن مع هذين الأمرين الاستعاذة بالله من الشيطان.

قال ﷺ: «يوشك الناسُ أن يسألوا نبيَّهم حتى يقول قائلهم: هذا الله خالق الخَلْق، فمَن خَلَق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، ثم ليتفل عن يساره، وليَسْتعِذْ بالله من الشيطان»[5].

و- قول: «هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهو بكل شيء عليم».

يقول سماك بن الوليد: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا وجدتَ في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾»[6].

وهذا الأثر له حُكْم الرفع، إذ مثله لا يُقال من قِبَل الرأي.

(٣) رواه البخاري (٣٢٧٦) واللفظ له، ومسلم (١٣٤).
(٤) رواه مسلم (١٣٤).
(٥) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٦٥٣)، وحسَّنه الألباني في ظلال الجنة (٦٥٣).
(٦) رواه أبو داود (٥١١٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦١٤).

فهذه الإرشادات النبوية إن تعاطاها العبد على وجهها سَلِم من شُبَه الشيطان ومكائده في هذا الباب، وازداد يقينُه، وقوي إيمانُه بالله تعالى.

قال العلامة الألباني رحمه الله: «وأعتقدُ أنَّ مَن فَعَل ذلك طاعة لله ورسوله، مُخلصاً في ذلك، أنه لا بد أن تذهب الوسوسة عنه، ويندحر شيطانُه لقوله ﷺ: «فإنَّ ذلك يذهب عنه»[7]»[8].

ن- ومن العلاجات الشرعية لهذه الوساوس وأمثالها: الإقبال على العبادة والاجتهاد في تحقيقها؛ لأن العبادة أداء حق الله تعالى، فمَن اعتنى بها وأقبَل عليها انشغل بها عمَّا سواها، ولم يتطرق إليه شيء من الأفكار الفاسدة أو الخواطر السيئة، وكلَّما ازداد المرء تقرُّباً إلى الله بالأعمال الصالحة المشروعة زاد حبُّه للطاعة، وطَلَبَ المزيدَ من العلم بها ومعرفتها.

ل- ومنها: العمل بقوله ﷺ: «تفكَّروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في الله»[9].

فهذا إرشاد مبارك من نبيِّنا ﷺ في إعمال الفكر على الوجه الصحيح، وأنَّ على العاقل موعظةَ نفسِه ودلالتها على ما ينفعها من التفكر في نِعَم الله تعالى وآياته، وإحسانه ﷻ وألطافه بعباده، ووعده تعالى وثوابه، ووعيده ﷻ وعقابه، وكذا التفكر في النفس وعيوبها وآفاتها وطُرق تزكيتها، والوصول إلى فلاحها عند الله وسبيل نجاتها، وأن لا يكون

(٧) رواه أحمد (٢٦٢٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦١٠).
(٨) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٣٦/١).
(٩) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٣١٩)، وحسَّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٧٨٨).

التفكر في ذات الله، ولا في حقيقته ﷻ، ولا كيف هو؟

فعلى الراغب في إصلاح فِكْره، وسلامته من هذه الوساوس والشرور أن يصرفه فيما ينفعه، ففي ذلك امتثال أمر الله ﷻ، وزيادة الإيمان، والانضباط في الفِكْر، وأخذ العقل مساره الصحيح في التفكير، وسد أبواب الشيطان، وقوة الطمأنينة في القلب، وهدوء النفس، ومَن سلك هذا المسلك ازداد محبةً لله وشكراً له على نعمه وأفضاله؛ فإنَّ مطالعة آلاء الله ونعمائه طريق الفلاح وسبيل الفوز عند الله والسعادة عنده ﷻ، «ولهذا كانت طريقة القرآن: تذكير العباد بآلاء الله عليهم، فإنَّ ذلك يقتضي شكرهم له»[١٠].

وكلَّما أعمل المرء فِكْره فيما ينفعه هُدِيَ، وفُتح له من أبواب التفكير النافع أضعافاً مضاعفة، فالواجب على المسلم أن يسير على ما سار عليه السلف الصالح من إعمال العقل فيما أمر الله به، وحثَّ عليه نبيُّه ﷺ من التأمل مثلاً في معاني الأسماء والصفات، والوقوف على آثارها المسلكيَّة وفوائدها التربوية، ومن التدبُّر لآيات الله الكونية وآياته الشرعية، والتفكر في معاني الكتاب والسُّنة ونحو ذلك، قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر»[١١]، فبهذا يأخذ العقل مسلكه الصحيح في التفكير، ويَسْلَم المرء من التخبطات التي لا نهاية لها، ويكون سائراً على سبيل السلف الصالح في هذا الباب.

قال عون بن عبد الله: سألتُ أم الدرداء: ما كان أفضل

(١٠) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/٦٤٩).
(١١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٥٣٥).

عبادة أبي الدرداء؟ قالت: «التفكر والاعتبار»[١٢].

والآثار في هذا عنهم رضي الله عنهم كثيرة.

ق- ومنها: إعمال قول النبي ﷺ: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يَعْنيه»[١٣]، فإنَّ التفكير في ذات الله ليس ممَّا يهم المسلم ولا يصلحه، وإنَّما يدخله في متاهات من الوسوسة وظلمات من الحيرة ما الله به عليم، وأنفع الدواء وأطيَبه للسلامة من عواقب هذه الوساوس -كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «أن تشغل نفسك بالفِكْر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك، فالفِكْر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فكَّر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه»[١٤].

ي- أن يُدرك من ابتلي بهذه الوساوس أن لتفكيره حدّاً ينتهي إليه، وأنَّ لعقله منتهى لا بد أن يقف عنده ولا يتعدَّاه، وأنه عاجز تماماً عن إدراك كل ما هو مغيَّب عنه، فلذا لزمه التسليم.

ومن شواهد ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي رحمه الله عن ابن مهدي أنه قال لفتى من ولد الأمير جعفر بن سليمان: بَلَغني أنَّك تتكلم في الرب وتصفه وتُشبِّهه.

قال: نعم، نظرنا، فلم نرَ من خَلْق الله شيئاً أحسن من الإنسان، فأخذ يتكلم في الصفة والقامة.

فقال له: رُوَيْدك يا بني حتى نتكلم أول شيء في المخلوق، فإن عجَزْنا عنه، فنحن عن الخالق أعجز، أخبِرْني عمَّا حدثني

(١٢) رواه وكيع في الزهد (٢٢٤).
(١٣) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٨١).
(١٤) الفوائد لابن القيم (ص:٥٥).

شعبة عن الشيباني عن سعيد بن جبير عن عبد الله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ قال: رأى جبريل له ست مائة جناح، فبقي الغلام ينظر.

فقال: أنا أُهوِّن عليك، صِفْ لي خَلْقاً له ثلاثة أجنحة، وركِّب الجناح الثالث منه موضعاً حتى أعلم.

قال: يا أبا سعيد، عجَزْنا عن صفة المخلوق، فأشهدك أني قد عجزتُ ورجعتُ[١٥].

وبهذا يُعلَم حُكْم هذه الوساوس، وما ينبغي للعبد تجاهها، والموقف الشرعي الذي عليه نحوها، وبسلوكه هذا المسلك وسيره على الوسائل المتقدِّمة وأَخْذه بها؛ يأمَنُ من فساد دينه، وتشوش قلبه، وخراب عقله، ودمار نفسه.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

(١٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٩/١٩٦-١٩٧).

سلسلة مطويات شبكة بينونة

علاج الوساوس في ذات الله تعالى

الشيخ
يوسف بن حسن الحمادي

www.baynoona.net
@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE